# التلقي في الأعمال الروائية المغاربية الفرانكفونية

**أ. محمد الصادق بروان**

**جامعة تيزي وزو**

يعدّ هذا المقال قراءة في مجموعة من الأعمال الروائية، محورها صراع حضاري بني على ثنائية: الأصيل والدخيل، جسدتها تجربة الروائيين المغاربيين المتفرنسين عبر سيرهم الذاتية في العقد الخامس من القرن العشرين، استعرضوها بأسلوب شيق وتحليل عميق ودقيق، يلاحظ فيها القارئ المتبصر البون شاسعا والفرق واسعا بين الموهوب والمنهوب. هذه الثنائية المندرجة ضمن صراع عام بين الشرق والغرب، أحدهما يسعى إلى رسم رؤية حضارية، ويدعو إلى حوار وتعارف، وآخرهما يرسم علاقة الهيمنة والإلغاء للآخر، رافضا مجرد الحوار، محتجا وقائلا: (كيف تريدون أن تتحاوروا معنا حول المسائل الفكرية وقضايا الدين، وأنتم محرومون من الحوار بينكم وتحسبون ألف حساب قبل أن تبوحوا بما تفكرون فيه وتضيق صدوركم ولا تنطق ألسنتكم)[1].

يدعي الآخر القادم من وراء البحر، أنّ ردم الهوة الحضارية بين الأصيل والدخيل، هو هدفه المنشود وأمله الموعود، زاعما أن مشروعه الحضاري يروم تحقيق المساواة بين الضفتين بعد ترقية ثقافة الضفة المهترئة ودفعها إلى مرتبة الدخيلة المتطورة، واستجابت لهذه الوعود البراقة بعض العقول المنخدعة بالمشروع «العادل» على ضوء الانبهار بالآخر دون التفطن للعنصرية المبطنة، المنجِزة (أكبر عملية تدميرية منظمة شاملة لكلّ البنى التحتية والأساسية، خلال عقود من السيطرة والهيمنة، بترسانة من القوانين، ظاهرها

التحضر والتمدن للشعوب « المتوحشة»، وباطنها المحو التام للبنى التحتية: محو الدين واللغة والتاريخ وحتى العادات والتقاليد)[2].

مرّ الصراع – كما يتجلّى في الروايات – **بثلاث مراحل**، كان في بدايته **إعجابا بالوافد واقتداء به**، حيث اتصل أبطال الروايات به اتصالا غير مباشر عبر المدرسة والأساتذة والبرامج. وقد عارضه الأولياء لما فيه من خطر على مستقبل الأبناء، إذ المدرسة الفرنسية تمس بالأصالة وتستهدف الهوية، إلاّ أن ربطها بالوظيفة أدّى إلى الإذعان، بانتقاء ما يخدم حاجيات الإنسان.

كان والد كاتب ياسين يوصي ابنه: (اترك العربية في الراهن، لن تكون ضحية الكُتّاب، إن الفرنسية هي السائدة، والتحكم فيها ضروري، سوف تعود – بعد تخرّجك – دون خطورة إلى وضعيتك السابقة)[3]. كما أن السيد **بشير حاج علي** قد أسدتْ له جدّته نصيحة أن (يتعلم القرآن لآخرته والفرنسية لدنياه)[4]. أما والد (فرعون) فقد رغب في إبعاد ابنه عن الهجرة وإنقاذه من العمل الشاق، وهو الذي جرّب الأشغال اليدوية بمصانع فرنسا متيقناً أن النجاح في الدراسة يغير حالة الأسرة البائسة.

أبدى أبطال الروايات الإعجاب الشديد بالواقع الجديد، فأقبلوا على الثقافة الدخيلة بشراهة كبيرة، متلقين الدعم والمساندة. وقد استفاد ( فورولو) من السكن المجاني بمقر **لامبير**، حيث يدرس نهارا ويحفظ آيات من الكتاب المقدس ليلاً، إذ وُظِّف هذا التعليم بغية الوصول إلى تغيير جذري في بنية المجتمع الجزائري بتخريج جيل من المتذبذبين، يندمجون في الثقافة الوافدة وينسلخون من الهوية الوطنية. وغاية المساعدات التأثير من أجل التنصير حيث توالي النخبة الاستعمار، والوطن يتهدده الخطر.

إنّ هؤلاء التلاميذ أو الأتباع كما يسمونهم، لا يكتفون بما يدرسونه في القاعات بل يطالعون الكتب القيمة، المكوّنة للشخصية، فبذلوا مجهودا كبيرا بعد

أن اكتشفوا عن طريق المدرسة والكتاب عالما مثاليا متطورا، قلّدوه في مظهره وجوهره وانبهروا بمبادئه: الأخوة، المساواة، الحرية، الديمقراطية. خجلوا من تخلف ذويهم، حيث اختلاف الرؤى بين الشيوخ المتشبثين بالتقاليد والشباب المتطلع إلى الاندماج في الحضارة الغربية، رامزين لهذا الصراع بين الأجيال بواقع المرأة الريفية السائرة مع الرجل في خطين متوازيين (عالم الرجال والنساء بمثابة الشمس والقمر، في كل يوم يتراءيان ولكنهما لا يلتقيان)[5].

ظهر الصراع في رواية "**الهضبة المنسية**" بين عقلية تفرض نفسها وأخرى تتغير تدريجيا. بدأ محليا بين الأبناء المتعلمين وذويهم الأميين، فبلغ ذروته في رواية "**الماضي البسيط**" لإدريس الشرايبي، بثورة البطل إدريس فردي على الدين والعادات، محاولا الانتقام من ماضيه: يدخن، يشرب الخمر، يأكل لحم الخنزير، يتحدى أباه المتدين علانية، يتهمه بمداعبة الفتيات في ضيعته الكائنة بعين ذياب.

احتدم الصراع بين عقليتين متناقضتين: أصيلة يمثلها الإمام الفقيه "سي الكتاني"، ودخيلة يمثلها "إدريس فردي" الذي يتهم الإمام بعمل قوم لوط، ينتهي لصالح إدريس فردي الذي يحتضن العقلية الجديدة.

لم يقبل الآباء تمرد الأبناء على المعتقدات والطقوس في المجتمعات التقليدية، فثاروا على الأفكار الدخيلة لأنها تشكل خطرا على الأعراف الاجتماعية. فالآباء يرفضون رسائل أبنائهم والأبطال عموما يُدينون مجتمعاتهم، يتمنون انتصار الحضارة الفرنسية لمزاياها: الأطباء الطرقات المعبدة، المدارس. كنا نعيش كالحيوانات في الغابة، يتعدى القوي منا على الضعيف[6]، بينما يتنكر الآباء لأبنائهم (لا تفكر فينا أو في إخوتك بعد اليوم أبدا)[7]. إنه صراع بين الأصالة والمعاصرة.

تنسلخ النخبة الشابة من الشخصية الأصيلة، ترفض تراثها التقليدي لتشبعها بروح الغرب الحضاري، إلاّ أن أحلامهم قد تبخرت بعد فشلهم في إيصال هذه الرسالة الجديدة، فانقطعوا عن مجتمعهم القديم، وخجلوا من عائلاتهم (كم أنا معجب بزملائي الأوربيين الذين لا يخجلون إن ذكروا أولياءهم أو مجتمعهم، بينما أخجل أنا من ذلك، بل أكثر من هذا، أكذب وأراوغ حين أُسْأل عن مهنة أبي مثلا، أكتفي بالقول إنه يعمل بالجلد)[8]. إنهم فاقدون توازنهم بعد قرارهم النهائي بالقطيعة مع الماضي، متنكرين للأصالة باحثين عن الجدّة والحداثة، بعد شعورهم بالتمزق الداخلي الذي خلق فيهم مركب نقص تجاه مجتمعاتهم المتخلفة، شاعرين بخيبة الأمل بعد الفشل، فنشأ عندهم ردّ فعل عنيف. تمثل في قطع الصلة بذويهم، مفضلين الالتحاق بالمجتمع الغربي، بحثا عن البديل الأمثل.

فشل الأبطال في فرض ذاتهم الدخيلة لصمود الذات الأصيلة، فراحوا يبحثون عن حياة جديدة، متصلين بالعالم الغربي مباشرة، اعتمادا على الهجرة للدراسة أو للتجنيد في الجيوش الفرنسية.

تأتي **المرحلة الثانية** بهجرة الأبطال إلى أوروبا، فيُصْدَمون بالواقع المرير ويصابون بخيبة الأمل. وقد تجلت هذه المرحلة في روايات فرعون: **ابن الفقير، الأرض والدم، الدروب الوعرة.** والهجرة قناة اتصال بين الجزائر وفرنسا منذ مطلع القرن العشرين، إلاّ أن انعكاساتها متفاوتة بتفاوت الأوضاع التاريخية والاجتماعية والسياسية، إذ يكاد الصراع الحضاري ينعدم عند الجيل الأول في رواية (ابن الفقير) حيث ضيعوا حقوقهم لجهلهم الفرنسية إلاّ أنهم حاولوا التكيف مع الأوضاع الغربية.

كان والد "فورولو" ممثِلا لهذا الجيل، ما فتىء يوصي ابنه بتعلم الفرنسية كوسيلة دفاعية. يعمَّق الصراع في رواية "الأرض والدم" بالبطل الرئيس عامر

أوقاسي، رمز الجيل الثاني، فهو محظوظ لأنه تعلّم الفرنسية ووجد بأرض الغربة، خاله رابح أوحموش، يشجعه على معاشرة النساء وتعاطي الخمر، مما ساعده على الاندماج خاصة بعد انقطاعه عن ذويه مقتفيا أثر خاله، ناسيا القرية بمن فيها. لم يمرّ عام على إقامته حتى التحق بالمنجم، معتمدا على نفسه، رافضا التطفل على أبناء بلده. كان معجبا بأندري الذي أحسن إليه، لا لأنه زميل خاله، ولكن استغلالا لسذاجته وانتقاما من خاله، منافسه العنيد في معاشرة زوجته إيفون.

صارح رابح أوحموش ابن أخته بعلاقته مع إيفون زوجة أندري صاحبة الفندق الذي يأوي أبناء بلده، عاشرته سرا مقابل أن يضمن لها الزبائن، فانكشفت علاقته حتى ظنّ البعض أنّ صغيرتها (ماري) هي بنت رابح أوحموش الذي يوجه خطابه إلى ابن أخته، واصفا أمها ( باللبؤة، فهي تسحقك أنت بالذات، فما يستطيع هذا الجهيض أن يفعل؟)[9].

يحكم عامر أوقاسي على أنانية القبائلي، حيث التباهي بالانتماء إلى قرية دون أخرى، يتحاقدون ويتشاجرون، لكنهم لا يتّحِدون ولا يتعاونون وكأنهم ليسوا في غربة، يتقاضون أقلّ الرواتب دون أن يتحركوا لتغيير حالتهم، فهو تمييز عنصري بعينه.[10]

كاد أندري لعامر أوقاسي، فطلب منه دفع العربة، وذلك ليس من عمله، فحدثت المأساة المدبرة من أندري، المنفذة من عامر دون أن يدري فقتل خاله وحمّله أندري مسؤولية الجريمة، فأذعن تحت تهديداته، فهل يُعقل السكوت عن دم خاله السائل بالمنجم؟.

لم يتحمّل عامر المأساة، ولا يستطيع مواجهة أندري في بلده، ناهيك عن مواجهة ذويه بعد خيانة دمه. يقرر التصريح بالحقيقة مهما كان، لكن رمضان

– صاحب التجربة في الغربة – يمنعه، مقللا من شأن الحادثة مقنعا أفراد القرية خاصة بعد أن روّجت الإدارة رغبة رابح في الانتحار.

كانت الهجرة في روايتي: **ابن الفقير** و**الأرض والدم**، لا تخلو من معاناة الفراق وما يترتب عنها من مشاكل نفسية واجتماعية كالاغتراب والتمزق والضياع، إلاّ أنّ ثمة أملا في تحسين أوضاعهم المعيشية المتدهورة، يتجلى ذلك في روايته: **الدروب الوعرة**، إذ لم يعد بطلها عامر نعمر يشعر بمضايقات الجيل الأول، بعد تكيّفه مع ذويه بحكم ثقافته.

سافر بعد السياسة الإعلامية المغرية، أرباح ما وراء البحر خيالية حرية الأفراد مضمونة، بخاصة وأنه ابن الرومية، بيد أنه لم يجد ضالته والاستقبال الذي يتوقعه. فالفرنسيون لا يعيرون أهمية للوافد المغاربي الذي يعاني سياسة الإقصاء والتهميش.

حطموا قيود مجتمعاتهم الأصلية. فالمحرمات مباحة في الغربة، الخمر والخنزير والإفطار في رمضان، لقد تحرروا من كلّ القيود إلاّ استقبال الفرنسيين لهم. حريتهم موجهة إلى الضياع والدمار لأنها لا تضمن لهم العمل ولا تمنح لهم الاحترام والأمل، إذ يحتلّ الأهالي الدرك الأسفل في فرنسا (ما تكتبه الصحف كذب وافتراء، وصداقة الفرنسيين وهْم وخداع)[11]، وتشرح **عايدة أديب بامية** ذلك بقولها: (يرجع جوهر الصراع إلى سياسة الاستعمار المطبقة على الشعوب المقهورة، حيث المفارقة كبيرة بين المبادئ المعلنة والواقع المطبق، إذ التصاريح معسولة، والحقائق مؤلمة)[12]. لذلك خابت آمال عامر نعمر، إذ يعيش بجانب أخواله لا معهم، بعد أن رفضوه لتباين واقعهم.

لقد عمق الكاتب نظرته لإبراز وعود الغرب المزيفة، لاحظ تباينا بين الأقوال والأفعال، أشار إليه كاتب قائلا: (عندما وصل المستعمر الفرنسي إلى بلاد القبائل، بدأ يوهمنا بأنه جاء لتعليمنا وتحضّرنا، في حين كان يرمي

بعادات الأسلاف في غياهب الظلمات، ولم يكن الطفل مدعوّا ليتطور في لغة المستعمر وحضارته، بل كان مرغما على التنكر لعادات أهله، باحتقارها والإحساس بالخجل إزاءها)[13].

اتفق بطلا معمري وفرعون في روايتي **سبات العادل** و**الدروب الوعرة**، إذ آراؤهم متطابقة في معاملة الأوربيين لهم، فأرزقي الذي التحق بالجيش الفرنسي إرضاء لأستاذه (بواري)، يصاب بالخيبة عندما يمنعه الرقيب من الدخول إلى المطعم بحجة أنّ الأولوية للأوربيين، مذكرا إياه – على الرغم من رتبته العالية كضابط – (إنه القانون، الأوربيون أولا )[14] فأذعن أخيرا بالرغم من إلحاح زملائه المغاربة على تمثيلهم في الإصرار بحكم إجادته الفرنسية، إلاّ أن الإهانة قد تكررت مع النقيب (ريكاردو) حينما أراد تقديم الكتيبة بحكم أقدميته وعلوّ مرتبته. أعيد إلى الصف ليكلَّف ضابط فرنسي جديد بالمهمة، ليسأل أرزقي: (هل تعرف القانون؟ على الأهالي الخضوع أمام الأوربيين في حالة تساوي الرتب)[15].

لقد كان أرزقي يؤمن بالقانون الفرنسي في بداية مشواره، كما يؤمن بسياسة الاندماج التي تسوي بين الأهالي والأوربيين في الحقوق والواجبات لولا الصدمة التي تلقاها حين علم أنّ راتبه الشهري ثلث راتب زملائه الفرنسيين، فلما استفسر عن ذلك قيل له: (اسأل ديغول)[16] إنّ الفرق كبير بين الواقع المعيش وبين أقوال الصحف، التي تنشر وعود منح الاستقلال للمغاربة المتساوين مع الأوربيين.

إن تعاليم المدرسة الفرنسية وعود مزيفة، وقد سقطت الأقنعة وانكشفت الحقيقة القائمة على التمييز العنصري، بعد أن هضمت حقوق المغاربيين حتى المؤهلين بقدرات عالية، فلا غرو بعد تبخر أحلامهم أن يصابوا بخيبة الأمل. إنّ التمييز العنصري لم يعد مقتصرا على البشر، بل تجاوزه إلى الحيوانات ما

دام كلب برادة صديق إدريس فردي بطل رواية "**الماضي البسيط**" يشم الغرباء، يفرق بين العرب والأوربيين، حيث يقلب الدنيا نباحا في حالة العرب، بينما يهرّ هرارا في حالة الأوربيين، الشيء الذي جعل البطل إدريس فردي يعاكس أستاذه الذي سأله يوما عن مشاريعه فأجابه: أهذا ما تطلبه السياسة الاستعمارية من تحضير الشعوب؟ ثمّ طلب منه حاجتين: منحه مهلة كافية لإشباع نظرته من أثاث مكتبه المجهز، لأنه كمغاربي غبي تستهويه المظاهر الخارجية والأمور التافهة، ثمّ الانصراف.

اصطدم المثقف المغاربي بواقع الحضارة الغربية الفعلي، بعد أن اتخذها أنموذجه الأفضل والأمثل، فأنكر ذويه، كما بدا واضحا من بطل (يلعن والديك) في رواية "**التيوس**" والتسميات هنا فنية وليست اعتباطية، فالمغاربيون جميعا ملعونون في نظر الأوربيين، والتيوس نعت كاشف عن حالتهم المزرية، حيث البطل لم يجد عملا ففكر بالزواج من فرنسية، إلاّ أنّ ذلك جلب له المتاعب، إذ لم تعلن زوجته عن نواياها الحقيقية، وتذكره دائما أنّ رائحة التوحش تنبعث منه، ولم يدر أنه لا يختلف عن بقية إخوانه التيوس إلاّ بعد أن خانته في شرفه، فعرف أنه مغاربي لا يستحق التقدير.

اعترف ألكسندر مردخاي بن علوش ضمنيا باختلافه عن الأوربيين فكريا واجتماعيا وحضاريا، حين صدم بعالم الثانوية المخالف لما تصوره، فاكتشف حقيقة انتمائه إلى فئة اليهود الكادحين. كم آلمه ما سمعه من أن: (اليهود هم الذين يخربون فرنسا)[17].

لم يختلف الأساتذة في تعصبهم عن غيرهم من الناس، فقد ذُكِر كيف يسخر أستاذ الرياضيات من الطلبة اليهود والمسلمين عند أيّ خطأ يصدر منهم، ملفتا انتباه الفرنسيين قائلا: (اسمعوا إفريقيا تحدثكم)[18]. إنهم يكرهون الأفارقة بغض النظر عن الديانة، ما دام الصراع بين الغرب والشرق. يحتار

البطل ألكسندر مردخاي بن علوش عن القواعد الأخلاقية للفلاسفة الأوربيين الذين يكن لهم الإعجاب والتقدير، ثمّ يتساءل: ألهذا اخترتُ الغرب ورفضتُ الشرق؟ إنه لم يكن الضحية الوحيدة، فزميله المسلم مقرف (لهم رائحة كريهة، لأنهم يكثرون تناول شحوم الأغنام القديمة)[19].

شعر أبطال هذه الروايات بالتمزق والضياع من عنصرية فرنسا، بدا ذلك عند ألبير ميمي في "الماضي البسيط" واستطاع تعميق الصراع في "آغار" التي تدور أحداثها على أرض مغاربية، بطلها امتداد لألكسندر مردخاي بن علوش، إنه لا يحمل اسما محددا، زوجته (ماري) فرنسية، ترمز إلى الحضارة الغربية المتفوقة، يعتقد أنها تشكل همزة وصل بين عالمين مختلفين، يظهر الصراع بينهما في كلّ شيء حتى في الأكل، حينما يطلب داخل المطعم خصيتين مشويتين، تثور ماري مستغربة ما سمعته من زوجها فيردّ ثائرا مندهشا من غضبها قائلا لها: أنسيتِ أطباق الحلزون؟ وعند إنجابهما طفلا اختلفا في تسميته وفي ختانه. وكلّ هذا يبين الصراع القائم بين حضارتين: متفوقة تأبى الدخيل، ومتخلفة ترفض التهجين، لكن أبناءها المثقفين يرغبون في الانسلاخ منها والاندماج في سواها.

أشار الكاتب ضمنيا إلى رغبة إيفون، زوجة أندري في تجديد علاقتها مع رابح أوحموش بابن أخته الشاب القوي المشابه له، فشجعته على الخمر والانعزال به طول الليل بحضور ابنتها (ماري) المغتاظة من تصرفها الغريب. مرّ الشاب بظروف صعبة، حيث لم يجد عملا ولا استقرارا اجتماعيا أو نفسيا، فشعر بالذنب وتأنيب الضمير، ولم يستفق من الصدمة العميقة بعد وفاة خاله. وبعد مضيّ ست سنوات على الحادثة الأليمة، شعر عامر أوقاسي بهدف له في الحياة، باتخاذه قرار زواجه من ماري، ابنة عشيقة خاله المتوفى، عاش معها في باريس فترة عسيرة بسبب الأزمة الخانقة ليعود بعدها إلى وطنه

مستأنفا حياة جديدة، وهي الحياة التي تعنيها تسمية (الأرض والدم) التي ترمز للعلاقة الجدلية بينهما، فنداء الأرض قويّ ولا تسمح لأبنائها بالبقاء خارجها مهما طال الزمن بين معمري عن طريق أرزقي بطل رواية (سبات العادل) المشارك في الحرب ضدّ الألمان، الواجد نفسه ضائعا بعد نهايتها، استهزأ به رجل الأمن مستغربا بقاءه في فرنسا التي لا تتسع للجميع إنّ مهمة المغاربيين قد انتهت، وعليهم الرحيل، الشيء الذي جعل البطل يعيد حساباته بعد الفشل في اندماجه، فانتقل الصراع من حضارتين إلى داخل ذاته لتنزاح المؤثرات الغربية وتحلّ محلّها التقاليد الوطنية المختفية في وعيه الباطن المنبعث من جديد. هكذا زالت صورة الغرب النموذجية فعوضوها بالذات المغاربية، فكانت العودة الحتمية إلى مجتمعاتهم الأصلية. يعود الوعي فيعرف طريقه إلى المغاربيين الذين أحسوا بالاحتقار والتمييز العنصري الذي مارسه الغرب إزاءهم، واستغربوا احتلال المستوطنين أعلى المناصب في الجزائر، ينعمون بالخيرات ويغتنون في بضع سنين، بينما يلهث الجزائري في فرنسا باحثا عن لقمة العيش، قد لا يجدها إلاّ بعد التسول.

دافع أبطال هذه الأعمال الروائية عن الحضارة الفرنسية، غير أنّ أحلامهم قد تبخرت وانهارت نتيجة الإقصاء والتهميش. من أجل ذلك، يغتنم أرزقي بطل "سبات العادل" –أثناء تواجده في الجيش– فرصة تجمع الضباط في المطعم خلال حفل ساهر فيأتي بصندوق فيه كتبه، يطلب من جميع الحاضرين الاقتراب منه، فيرمي كتابا وراء كتاب إلى النار: العقد الاجتماعي، العقاب، التفاوت الاجتماعي، أوجست كونت ... يتجرأ للقيام بعمل بطولي بعد فقدان توازنه جراء الصدمة العنيفة، يحرق كتبه انتقاما من الثقافة الغربية التي بثت في كيانه سما حطم معنوياته، رافضا ما ورد فيها من مكر وخداع. لم يتوقف سخط البطل عند إحراق الكتب، إنما ازداد غيظا فأراد محو آثار الرماد

المتبقي، فلما سئل عن فعلته أجاب بأنه (يبول على الأفكار)[20]، منتقما على طريقته الحاملة دلالات حضارية، يبلغ الصراع ذروته عند أطراف متناقضة، يُغيِّب كلّ واحد الآخر. لذلك ردّ أرزقي على أستاذه بواري: (حدّثتموني عن الإنسان ... كم كانت صدمتي عند اكتشافي أن لا وجود له ... إن الذي تأكدتُ من وجوده هو الإيمان*)[21].

لقد كان عمله رد فعل على سياسة إقصاء الأهالي المغاربة ومنحهم المكانة الدنيا. يُلْقي اللوم على أستاذه المضلل له بالكلام المعسول. فالمبادئ مزيفة، وأفكار الثورة الفرنسية على الحرية والأخوة والمساواة، التي تنشرها الصحافة فارغة من محتواها.

إنه لم يعد يؤمن بالشعارات الجوفاء بعد تصفح كتبه، التي لم يجد له مكانا فيها، فأحرقها تعبيرا عن سخطه ويأسه. حاول الاستعمار تمييز النخبة المثقفة ثقافة فرنسية للقضاء على مقومات الشخصية المغاربية، بيد أن المغاربي – في نظر الاستعمار– لا يتغير مهما تبلغ درجة ثقافته، ما قاد النخبة إلى إعادة حساباتها، إذ بالرغم من بذل كلّ جهودهم للاندماج في الحضارة الغربية، إلاّ أنّ الاستعمار يقصيهم ويهمشهم، فأعادوا البحث عن هويتهم، بعد أن تلقوا الصدمة والخيبة، فاكتشفوا أن وعود فرنسا كاذبة.

تمكن الروائيون من تعميق الوعي وتجسيد فكرة البحث عن الذات المغاربية، بعد ظهور الأحزاب السياسية كنقلة نوعية من المقاومة الشعبية إلى حرب منظمة، ففُتِح المجال لظهور وعي وطني عبر هذه الروايات ابتداء من الخمسينات.

تغيرت نظرة النخبة لتحدث القطيعة مع الغرب، بعد إخفاق محاولة الاندماج، واكتشفوا أن التخلي عن الوسط الأصلي لا يكفي، ما لم يقبلهم الآخر.

*الإمان تقليد IMANN = **I**ndigène,**M**usulman,**A**lgerien,**N**on **N**aturalisé وترجمته: أهلي، مسلم، جزائري، غير متجنس.

تبدأ رواية "الأرض والدم" بعودة البطل عامر رفقة زوجته الفرنسية ماري، فوجد نفسه ( كالزيتونة المسنة المقتلعة من تربتها لتغرس في تربة أخرى )22. يلزم أن تتبعث جذورها من جديد.

حاول البطل رأب الصدع وكسب ودّ القرية، خاصة عائلة رابح أوحموش بعد أن شاع في القرية أن مدبر قتله هو عامر أوقاسي، لكن رمضان بمعاونة زوجته وابنته شابحة، بين أن ما حدث بالمنجم في فرنسا لم يتسبب فيه عامر أوقاسي، فالقاتل الحقيقي هو أندري البولوني، لذلك فلا جدوى من الانتقام، علما بأن الثأر تقتضيه عادات المجتمع التقليدي، وإلاّ يعدّ السكوت عليه وصمة عار للعائلة كلها.

بدأ عامر أوقاسي يتأقلم داخل القرية، يهتم بشؤونها، تقرّب من شابحة الشابة القوية ابنة رمضان وزوجة سليمان، تطورت علاقتهما وبدأت الشكوك تراود زوجها، ففكر في الانتحار، إذ لم يتجاوز مصيبته الأولى حتى نزلت عليه أخرى، فكانت النهاية أن انتقم لعمه المقتول في فرنسا ولشرفه المداس في القرية. قضى على عاشق زوجته بطريقة شبيهة بموت خاله رابح أوحموش بالمنجم، لكنه لم ينج هو بدوره بعد انكشاف مخططه. ترمز هذه النهاية إلى صعوبة التعايش بين التقاليد الراسخة وقيم الحضارة الدخيلة. تنتهي الرواية بموت عامر أوقاسي، فيسيل دمه في تربة أرضه التي تأبى دفن أبنائها في الغربة، وحتى رابح أوحموش عاد إلى القرية عن طريق دم ابنته ماري. والأرض لا تسمح بهدر دم أولادها دون قصاص، كما تقتضي العادات والتقاليد، لذا دفع عامر أوقاسي دينه بالصورة نفسها، التي مات بها رابح أوحموش. عاد عامر هو الآخر بالجنين الذي تحمله ماري في أحشائها.

تدل هذه العودة الاضطرارية إلى الوطن على الفشل في التأقلم مع المجتمع الغربي الرافض لكلّ ما هو مغاربي. فالجزائر هي وطن البطل الأصلي، لا يهينه فيه أحد، ولا يسمع فيه عبارة: اذهب إلى بلادك أيها الفأر الصغير.

**الهوامش:**

1- حسن الجنحاني، حوار الحضارات، مجلة العربي، عدد557، وزارة الإعلام، الكويت، أفريل، 2005، ص16

2- جان بول سارتر، نظام الاستعمار في الجزائر، ترجمة: سهيل إدريس، مجلة آداب، عدد خاص، بيروت، 1980، ص29.

3- Houria-Kadra Hadjadji, Contéstation et révolte dans l'œuvre romanesque de Driss Chraibi, Alger: ENAL, 1986,p302

4- عايدة أديب بامية، تطور الأدب القصصي الجزائري، 1925-1967، ترجمة محمد صقر، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1982، ص 58.

5- Isaac Yetiv, Le Thème de l'aliénation dans le roman magrébin de langue française,1952-1956, Canada :Celef,1972,p.118.

6- Mouloud Mammeri, Le sommeil du juste, France librairie Plon , 1955,p07.

7- Driss Chraïbi, le passé simple, France Edition Denoël, 1954, p.172.

8- Albert Memmi, La statue de sel, Paris Gallimard, 1966, p212.

9- Mouloud Feraoun, La terre et le sang, Paris Edition du seuil , 1953, p58.

10- Ibid, p61.

11- عايدة أديب بامية، تطور الأدب القصصي الجزائري، ص117.

12- المرجع نفسه، ص 113.

13- Mouhoub Amrouche, Colonisation et langage, Intervention au congrès méditerran , Florence, Italie, Octobre1960.

14- Mouloud Feraoun, La terre et le sang, Paris Edition du seuil , 1953, p58.

15- Ibid, p61.

16- Mouloud Mammeri, Le sommeil du juste, p.128.

17- Albert Memmi, La statue de sel, p276.

18- Ibid, p278.

19- Ibid, p282.

20- Mouloud Mammeri, Le sommeil de juste, p147.

21- Ibid, p136.

22- Mouloud Feraoun, La terre et le sang, p49.